آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السادسة : العدد الرابع والعشرون ـ رمضان ١٤١٩ هـ ـ يناير (كانون الثاني) ١٩٩٩م

■ تهذيب قراءة أبي عمرو ابن العلاء المازني البصري

تأليف: أبي عمرو الداني المتوفى سنة ٤٤٤ هـ ـ بأوله قيد قراءة سنة ٥٢٤ هـ

* TAHTHEEB QIRA'T ABI AMR BIN AL ALA AL MAZINI AL BASRI
AUTHOR : ABI AMR AL DANI, DIED IN 444 A.H.

الآفاق المستقبلية للحوار بين المسلمين والغرب

الدكتور/ يوسف الكتاني
جامعة القرويين - فاس - المغرب

يعدّ موضوع «الإسلام والغرب» موضوع الساعة ، وقضية مهمة للإسلام والمسلمين وللغرب نفسه، بسبب التجافي الذي بلورته سياقات تاريخية ، أفرزت تصوراتٍ خاطئة ، وأحكامًا جائرة في حق الإسلام والمسلمين ، ينبغي العمل على تجاوزها ، والتغلب على آثارها ، خدمةً لطموح الإنسانية في التعاون القائم على ضرورة احترام التنوع والاختلاف بين الحضارات ، وذلك بسبب ما يتعرض له الإسلام من تحريفٍ وتشويه من طرف بعض الجاحدين ، والحاقدين ، والجاهلين به ، وازدياد التحامل على المسلمين ، سواء في مستوى الصراع الواقعي ، أو في مستوى ما تعمل مراكز البحث هنا وهناك على صياغته كأفقٍ محتمل لممكنات تطور الصراع القائم، للعمل على تجاوزه ، وبناء ما يدعم آليات التواصل والتقارب الحضاري ، القادر على رفع التحديات المتبادلة، ومحاولة استبدالها بمنطق جديد وأسلوب جديد من التعاون والتعامل ، يؤدي إلى تعميق النظر والبحث في كثيرٍ من الجوانب التي ظلت تخضع لآليات الفهم والتحليل ، بعيدةً كل البعد عن طبيعة العلاقة ، وطبيعة الطرفين المحددين لها : الإسلام والغرب.

وإذا كان الوجود الإسلامي في الغرب يرجع إلى قرونٍ طويلة امتدت واستمرت، ويشهد اليوم خاصةً تزايدًا ملحوظًا، وإقبالاً كبيرًا، فإن رغبة المسلمين الصادقة لتأسيس صلتهم بالغرب قائمة على السلام والأمن، والتعايش والاعتدال، والحوار والتعاون، وتبادل المنافع والمصالح، بينما يرمي الجانب الآخر في الغالب إلى تغذية روح التعصب والعداء، من جرّاء عقدة الكراهية والحقد، بل الرغبة في القضاء على

الوجود الإسلامي، نتيجةً لكتابات المتحاملين والمستشرقين وتوجهاتهم وتصوراتهم الخاطئة.

من هنا تبرز مسؤولية المسلمين في تجلية الصورة المثلى للإسلام في الغرب، بإبراز حقائقه، وتعريفهم أسسه ومبادئه السامية، القائمة على التعاون والمحبة والتسامح بين الناس، ومساعدة الغربيين على فهمٍ أكثر لأوضاع المسلمين، وخلفيات سلوكهم؛ لرفع الالتباسات وتبديد الشكوك والمخاوف، مساهمةً في بناء خطابٍ جديد، يعمل على فتح صفحةٍ جديدة في العلاقة بين الإسلام والغرب.

لقد أفرزت الحرب الباردة مجموعة من التحولات العميقة، أعيد من جرّائها تشكيل الخريطة السياسية للعالم، تبعًا للتغيّر الذي لحق ميزان القوى، وبانتهاء هذه الحرب عاد الغرب إلى طرح المسألة الإسلامية على محك المناقشة والنقد والتقويم، وكان من نتائج ذلك تبدّل سياسة العالم الجديد تجاه العالم الإسلامي، بل تجاه الإسلام نفسه، الذي أصبح العدو الرئيس للغرب، بعد انهيار الشيوعية خاصةً، وانحسار المذهب الاشتراكي، كما صرّح بذلك الرئيس نيكسون في مذكراته التي نشرها قبل وفاته بقليل.

لقد قلب الغرب للمسلمين ظهر المجن، إثر انهيار الاتحاد السوفيتي، فبعد أن كان ينظر إليهم بصفتهم حلفاء صار ينظر إليهم بعداء. يسعى النظام العالمي الجديد إلى القضاء على وحدتهم واستقرارهم وحصارهم؛ لكونهم أصحاب عقيدةٍ صحيحة راسخة، تحثهم على الجهاد ونشر الدعوة الإسلامية، بصفتها بديلاً صالحاً للمادية المتردية، التي أثبتت إخفاقها الذريع، وبوصفهم أصحاب دستورٍ إلهيٍّ خالد، يوجههم إلى الوحدة والتضامن والتآزر، ويحذرهم من مغبة السقوط في الهيمنة والتبعية، مصداقًا للهدى القرآني الكريم ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**﴾(١).

ولقد أصّل هذا العداء للإسلام وغذّاه ووجهه تاريخ الاستعمار للعالم الإسلامي، وما بثه المستشرقون المتعصبون من آراءٍ وأفكار خاطئة في العقل الأوربي، شوّهت صورة الإسلام، وحرّفت حقائقه وتاريخه، وعملت على زرع العداوة بين الإسلام والغرب وتجذيرها، حتى تتصادم الحضارتان، وتتنافر الأفكار والثقافات، وتتعمق الهوّة بين العقليات، بل لم يسلم من ذلك أبناء المسلمين من خلال الغزو الفكري الذي يحاول تشكيكهم في هويتهم وحضارتهم.

وتكفي الإشارةُ هنا إلى توصية صدرت عن مؤسسة التراث المحافظة في واشنطن سنة ١٩٩٤ تتعلق بما أسمته «موضوع التهديد الإسلامي لشمال إفريقيا» تصوّر الفهم الخاطىء للإسلام والمسلمين، والخوف الظاهر من الصحوة الإسلامية، وهي توصياتٌ موجهة لسياسات الولايات المتحدة؛ لمواجهة ما سمته التوصية «بالخطر الأحمر الجديد»، ويقصد به الإسلام والمسلمون(٢)، وهو التصور نفسه الذي أعرب عنه «ويلي كلاس» الذي صرّح بقوله: «إن الأصولية الإسلامية تشكّل الآن تهديدًا للغرب كما فعلت الشيوعية من قبل»(٣)، وهي أفكارٌ وتصورات تعمل على ازدياد التباعد بين الإسلام والغرب، وتدفع إلى التصادم والتنافر بين الحضارتين، مما ينمّ عن الجهل بالإسلام.

وهو عكس ما يتجه إليه المسلمون ويعملون له من التعاون والتقارب بينهم وبين الغرب، الذي لا ينفكّ بعض ساسته ومفكريه يتعمدون إشعال روح الكراهية بيننا، كما نقرأ فيما كتبه «ليزلي جيلب» في «النيويورك تايمز»: «إن الإسلام لا يعترف بالتعايش

كمبدأ؛ إذ التعايش يتعارض مع فهم الإسلام للنظام العالمي»(٤)، وهي من الدراسات والبحوث التي أنجزت لتحديد العلاقات الجديدة بين المسلمين والغرب، والتي أريد لها أن تتأسس على أطروحة الغالب والمغلوب، والسيطرة على مقدرات العالم الإسلامي، والوقوف في وجه تطوره ووحدته وهويته، الأمر الذي يضاعف مسؤولياتنا لبذل الجهود لتبديد ظاهرة الخوف من الإسلام، وما يمكن أن يفعله في تاريخ الإنسانية ومسارها الحضاري، وهو القاسم المشترك الذي يشكل التيارات الفكرية والسياسية الغربية ويوجهها، وهو ما يدعونا إلى مضاعفة الحوار، وفتح قنواته بين الإسلام والغرب على الأصعدة والمؤسسات الفكرية والسياسية والاجتماعية المختلفة؛ لتحويل فكرة التصادم والتنافس إلى آفاقٍ رحبة من التعاون والالتقاء والتسامح، من أجل الغاية السامية والأساسية، وهي الوصول إلى تصحيح صورة الإسلام، بتبديد شكوى الغرب وتخوفه منه، وتقويم الأفهام الخاطئة، والتصورات المغرضة(٥).

منهج الحوار الإسلامي المطلوب

ولذلك يكون الحوار المسؤول الوسيلة المهمة والأساسية لتصحيح صورة الإسلام في الغرب؛ إذ بالحوار ينفتح العقل والفكر على مجالات الوعي والفهم المتبادل لكلّ من الجانبين، لاختلاف الجهات، والجنسيات، والعقائد، والحضارات. وبالحوار المؤمن بشرعية الاختلاف نتجاوز مرحلة الصراع، وعقدة العالم الجديد في الهيمنة والسيطرة، ولا يتمّ ذلك إلا بالفهم العميق لبيئته وعقليته، وجميع مشكلات العصر وأيديولوجياته، عن طريق مؤسساتٍ علمية أكاديمية، ووفق مناهج مدروسة محكمة.

ولقد أصّل الإسلام مبدأ الحوار والتواصل بينه وبين الشعوب والحضارات، ونصّ عليه القرآن ووجّه إليه في آياته وسوره، فقد قال تعالى: ﴿**قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**﴾(٦).

كما نظّم الإسلام آليات الحوار ووسائله بما يلي:

- الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما جاء في القرآن: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾(٧).
- الإقناع بالبرهان كما قال تعالى: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى تلك أمانيُّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾(٨).
- الاعتدال وإقامة الحجة على الناس، فقال تعالى: ﴿**لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا**﴾(٩).
- الدفع بالتي هي أحسن لقوله تعالى: ﴿**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوةٌ كأنه وليٌّ حميم**﴾(١٠).

حاور الرسول ﷺ أعداءه وخصومه، على مستوياتهم وعقائدهم المختلفة، بهذه الآليات، وبهذا المنهج والأسلوب، حتى أولئك الذين قاطعوه وحاصروه، وعذبوه وهجّروه، سواء في المرحلة المكية أو المدنية، وهو ما يقتضي منا التشبث بالمنهج الإسلامي في الحوار في هذه الظروف خاصةً، وذلك بالعمل على فهم الآليات المتحكمة في العلاقات بين الأمم والشعوب، وتجنب التعامل مع

أطروحات «صراع الحضارات» و«صدام الثقافات» حتى نفوت الفرصة على أصحاب تلك النظريات والأفكار التي تجاوزها الزمن، وإن ظلّ بعضهم يحييها ويتمسك بها؛ لتكون عائقًا في وجه التعامل والتحاور بيننا وبين الغرب.

ومن هنا لم يعد الحوار بيننا مطلبًا عاديًّا فحسب، بل أصبح عملاً فاعلاً، وضرورةً حتمية، لا بدّ من تنميته والإقدام عليه، وتوسيع وسائله وأبوابه، لتجلية المواقف، وكشف الأغاليط، والتصورات الخاطئة، وتوضيح صورة الإسلام الجلية الطاهرة الناصعة، ووجهه الحقيقي؛ لأن هناك قواسمَ مشتركة بين الديانات والحضارات من شأنها إيجاد تقاربٍ حول العديد من قضايا العصر ومشكلاته، ولدحض محاولات التشويه التي يقوم بها المتحاملون على الإسلام. حوارٌ يحقق التلاقي في مجالات الاختلاف، وتلافي جوانب الخلاف لمصلحة الجميع، ويحقق التعايش بين المجتمعات في إبراز إيجابياته. ولذلك ينبغي أن نغير مسار الحوار، الذي جرى في الماضي في اتجاه الصدام والصراع، إلى المنحى الإسلامي؛ ليصبح حوارًا متكاملاً تعاونيًّا يحقق التقارب، ويتجاوز الصدام المخطط له، متغلبين على التحدي الأيديولوجي الذي يحاصرنا من كل جانب، بوساطة حوارٍ كفءٍ متعادل بعيدٍ عن حساسيات الماضي، وعقده، وأفكاره المفتعلة المدسوسة، التي تقف في وجه كل تقاربٍ وتعاون، مكتفيًا هنا بمثلٍ واحد على ذلك بقول بري بوزان:

«إن من شأن حربٍ باردة اجتماعية مع الإسلام أن تعزّز الهوية الأوربية من جميع نواحيها في هذا الوقت الحاسم في عملية الوحدة الأوربية، ربما يوجد رأيٌ واسع الانتشار في الغرب ليس على استعدادٍ لتأييد حربٍ باردة اجتماعيًّا على الإسلام فقط، بل للأخذ بسياسة تشجّع ذلك»(١١). ومن هنا يتحتم مراجعة الخطاب الإسلامي مع الغرب وعنه، حتى لا تستدرج الأطروحات المواجهة الدينية المسيحية، وذلك بالتقليل من أهمية تاريخ الماضي الذي أصبح أحداثًا قابلة للنسيان، عاملين على مدّ جسورٍ جديدة من الثقة، أساسها الحوار والتفاهم المشترك في إطار احترام كلٍّ منا للآخر، يصل بنا إلى الغاية المتوخاة، التي من أهم أهدافها إظهار صورة الإسلام وإبراز وجهه الحقيقي، متوخين المنهجية والعقلانية ونحن نقتحم مجالات الحوار، معتمدين على سنن الله في الكون والتاريخ والمجتمع، معتمدين على المؤهلين الأكفاء لهذه المهمة الحضارية، مدركين حقيقة ما يدور حولنا من مشكلات العصر وقضاياه، مبشرين ومقنعين غيرنا بعالمية الإسلام، وصلاحيته لكل زمانٍ ومكان، وقدرته الاستيعابية لأحداث الحياة ومشكلات الناس، وانفتاح المسلمين على كل الحضارات والمبادىء البنّاءة وقابليتهم ومرونتهم للتعلّم المتبادل، ولعل القرن المقبل يكون قرن الحوار المستمر البنّاء بين الإسلام والغرب؛ لأن الإسلام خاصة يجد موقعه في كل بيئةٍ وحضارة، ويستجيب لمطامح الإنسان وحقوقه في كل زمانٍ ومكان.

تصحيح صورة الإسلام في الغرب ضرورة حضارية

إن كل من يدرس الإسلام ورسالته الخالدة بصدقٍ وإخلاص يجده متفقًا مع الفطرة البشرية السليمة، مستجيبًا لتطلعات الناس، قائمًا على منهجٍ ربانيّ صحيح، يشمل كل جوانب الحياة في بساطةٍ ويسر. ومن هنا كانت نظرة المسلمين إلى الكون قائمة على التعاون والتكافل، وليس على الصراع والنزاع، أو على نظرية البقاء للأقوى كما هي عند الآخرين.

إن الصورة التي صنعها الغرب للإسلام والمسلمين انطلاقًا من هزيمته في الحروب الصليبية تقوم على أن الإسلام دينُ البطش والقوة والسيف، وأنه دين الرجال دون النساء، وأنه يحارب العلم والمدنية. وجاء الاستشراق والاستعمار ليعمّق الهوة بين الحضارتين، وليزيد الصورة تشويهًا واضطرابًا في أعين الغرب.

وهنا تكمن حقيقة دور المسلمين اليوم في تغيير هذه الصورة المشوهة، بتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة عن الإسلام، التي دفعت الغرب إلى الصراع مع العالم الإسلامي، وإعلان الحرب عليه، بوصفه عدوًّا لدودًا، مما دفع المفكر الإسباني غويتسلو إلى القول: «إننا خاضعون لعملية غسل دماغٍ كامل ضد العرب والمسلمين»(١٢).

إن وسيلتنا لتصحيح صورة الإسلام في الغرب لا بدّ أن تستهدف تبيين الحقائق، وتوضيح المفاهيم الخاطئة، وكشف حجب الحقد والضغينة التي شجعتها الكنيسة والاستعمار والاستشراق؛ لتكون العلاقة بيننا وبينهم علاقة صراعٍ وتدافع وعداء، كما ذهب إلى ذلك «صموئيل هنتيغتون» قبل أن يعود إلى الصواب في بداية هذه السنة بالاعتراف بخطئه والرجوع إلى الحقيقة(١٣).

تصحيح الأخطاء

سأقتصر هنا على ذكر قضيتين من القضايا التي ينظر إليها الغرب نظرة خاطئة، هما: القدس، والمرأة:

١ - قضية القدس

لقد أثرت نظرية (صراع الحضارات) التي قامت على مفهومٍ خاطئ في تصوّر كثيرٍ من القضايا ذات الحساسية، كقضية القدس؛ إذ إننا نجد الغرب لا يفهم أهميتها بالنسبة للمسلمين، بصفتها قضية دينية وثقافية مرتبطة بالشعور وليس بالمصالح، ومن ثم الخطأ في ترك إسرائيل تهدم بيوت الفلسطينيين وتبني المستوطنات في هذه المدينة المقدسة، تحديًا لمشاعر المسلمين، وخوفًا من معاهدة السلام الدولية، الأمر الذي ظهر في إجماع الأمة الإسلامية كلها على التشبث بالقدس، والانتصار لقضيتها؛ لأنهم يعدونها قضية دينية وثقافية تخص المسلمين جميعهم في مشارق الأرض ومغاربها، فهي قضية سياسية بالغة الأهمية، وجوهر الخلاف بيننا وبين الغرب.

٢ - حرية المرأة في "الإسلام"

إن حرية المرأة تتحقق بمعرفة طبيعتها، والحفاظ على تلك الطبيعة، وقد اعترف الإسلام بحقوقها كاملة وقدّر عليها واجبات كشقيقها الرجل، فقد روي عن النبي ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»(١٤)، وإن سعادتها تتحقق بالعناية بدورها في الحياة بوصفها طرفًا أساسيًّا في المجتمع إلى جانب الرجل، وقيامها بمسؤولياتها لاستقامة حياتها؛ أي إن الحرية تكمن في الخضوع والطاعة لرب العالمين، ولنضرب لذلك مثلاً يوضح هذا الأمر من خلال ما رسمه الإسلام من مواصفاتٍ للزي الإسلامي للمرأة، فقد اختلف الناس كثيرًا حول هذا الأمر في الغرب، بصفته لا يناسب العصر، ويجعلها أسيرته كما قالوا(١٥).

إن هذا المفهوم الغربي الخاطئ جاء من عدم معرفتهم الإسلام، ومن سوء فهمهم لحقائقه ومبادئه، واعتقادهم بأن العالم كله ينبغي أن يسير سيرتهم، ولا حضارة إلا حضارتهم. غير أن التيار الأساسي القائم اليوم في الغرب، وأخص الذين دخلوا الإسلام من أبنائه، يثبتون عكس ذلك، فكثيرٌ من نساء الغرب اللائي أكرمهن الله بنور الإسلام يرتدين اللباس

الإسلامي، بوصفه الزي الحق الذي يناسب طبيعة المرأة، ويحفظ كرامتها، ويحقق طمأنينتها وسعادتها؛ لأنه يقيها من أي شكلٍ من أشكال المساس بكرامتها، ويحميها من استغلال جسدها وسيلة للدعاية والعرض الرخيص، ولا يشكّل إهانةً للمرأة، أو عبوديةً لها، أو قيدًا لحريتها، كما أن كثيراتٍ منهن وجدن أن بقاءهن في البيت للقيام بشؤون الأسرة وتربية الأولاد ليس «حكمًا بالسجن» كما كان الاعتقاد سائدًا في الغرب، بل واجبٌ سامٍ يحقق التربية الصحيحة للأبناء وحسن رعايتهم.

- دور الإعلام في تبصير الناس بحقيقة الإسلام

لا ينكر أحدٌ اليوم الدور البارز للإعلام في العالم كله، ومدى تأثيره في توجيه الأحداث، بسبب التسارع التكنولوجي، والتقدم العلمي الذي جعل العالم كله قريةً صغيرة، تقاربت أنحاؤها، وفتحت أبوابها. ومعلومٌ أن الفهم الخاطىء للإسلام وقيمه في الغرب تعكسه بصورةٍ متحاملة وسائل الإعلام المختلفة، التي كان لها الدور البارز في تشويه هذه الصورة، والإيحاء بأنه «طاعون العصر»، و«عدو الغرب».

ولذلك يكون من آكد الواجبات على المسلمين استغلال وسائل الإعلام كلها، وغيرها من الوسائل المتنوعة والمخططات؛ لجلاء صورتنا، وتبديد الشكوك والأوهام الخاطئة، حيث سعرت قضية فلسطين والثورة الإيرانية الحرب الإعلامية ضدنا، واستغلت أحداثها لزيادة العداء للإسلام، كما أكد ذلك المفكر إدوارد سعيد(١٦)، والكاتب الإسباني خوان غويتسلو بقوله: «إننا خاضعون لعملية غسل دماغٍ كامل ضد العرب والمسلمين»(١٧).

ويعدّ توجيه النشاط الإسلامي بطريقة صحيحة، للاستفادة من وسائل الإعلام الحديثة في نشر الدعوة، وردّ الشبهات، وتوضيح المفاهيم، واجبًا إسلاميًّا مقدسًا، ينبغي أن تتضافر الجهود للقيام به، بتسخير وسائل الإعلام كلها لذلك، لما لها من أهمية في عالم اليوم، ومدّ الجسور بيننا وبين المؤسسات الإعلامية في الغرب من أجل الوصول إلى هذا الهدف الكبير، وهو جلاء صورة الإسلام، وأكتفي بمثلٍ قريب وقع أخيرًا في أمريكا؛ إذ قام الإعلام الأمريكي بأفضل تغطيةٍ ممتازة لموسم الحج في هذه السنة، عبر برنامج NIGHT LIVE الذي بثّته محطة ABCN، وكان البرنامج دعوة كريمة للإسلام، وإظهارًا لمنسك من أعظم مناسكه، حقّق آثارًا طيبةً بين أبناء الشعب الأمريكي، كما اعترفت بذلك وسائل الإعلام الأمريكية نفسها(١٨).

شهادات معاصرة

بسماحة الإسلام وصلاحيته لهداية البشرية اليوم

أخذ نور الإسلام وإشعاعه الإيماني الباهر يفتح العقول، ويغزو القلوب، لا في أوروبا وحدها، ولا في آسيا وإفريقيا، بل عمّ نوره أرجاء العالم وأنحاءه جميعًا، وأخذ الساسة والمفكرون، والعلماء والدارسون، يؤكدون أنه النبع الذي تفجرت منه المعارف الإنسانية المعاصرة، وأنه أساس الحضارة الغربية الحاضرة، وأن دعوته تستهدف وحدة البشرية وخيرها ورفاهيتها، دون النظر إلى اللون والجنس، واللغة، والمكان، وتستقطب ظاهرة الإقبال الكبير على اعتناق الإسلام، والدخول فيه طواعية، أغلب الشرائح المكونة للمجتمعات البشرية؛ إذ يلاحظ في فرنسا وحدها أن أكثر من مائة ألف فرنسي اعتنقوا الإسلام، بمبادراتٍ ذاتية، وكان دافعهم الأساسي قوته الذاتية، واستجابته للفطرة الإنسانية، وذلك بعد انهيار الشيوعية خاصةً، وانحسار المبادىء المادية والاشتراكية؛ إذ وجدوا

في الإسلام إنقاذًا لهم من الضياع، وأن فيه استقامة الحياة، وطمأنينة الضمير، وطهارة السلوك، فأقبلوا على دين الله بقلوبٍ متفتحة، وعقولٍ واعية، فحسن إسلامهم، وأصبحوا القدوة لأسرهم ولغيرهم في اعتناق الإسلام. وسأقتصر هنا على ثلاث شهادات، لثلاثةٍ من المشاهير في العالم كله، تدليلاً على قوة الإسلام الذاتية، وصلاحه لكل زمانٍ ومكان، وأنه السبيل الوحيد لكل هذه الأيديولوجيات والنظريات التي وضعت العالم في متاهات المادية والضلال.

١ - شهادة الأمير تشارلز
ولي عهد المملكة المتحدة البريطانية

من خصال الإسلام البارزة تأثيره في النفوس، وإنارته القلوب، بفعل استجابته للفطرة الإنسانية، إلى حدّ أن يقدّم الإسلام رجلٌ متميّز في الغرب – وهو غير مسلم – على أنه البديل والمعين على حفظ التوازن الحضاري، ويدعو إلى استلهامه لمقاومة المادية الغربية، وعدّ التراث الإسلامي مثالاً على كيفية اندماج الروحانية مع العصرية.

ولقد عبّر الأمير تشارلز عن إعجابه بالإسلام وتعاطفه معه في محاضرةٍ ألقاها في جامعة أكسفورد سنة ١٩٩٣، لقيت أصداء كبيرة في جميع أنحاء العالم عامةً، وفي إنجلترا خاصةً. ثم عاد أخيرًا لتجديد تقديره للإسلام – عن قناعةٍ ثابتة – وفتح نوافذ الحوار بين الغرب والإسلام.

وقد جاءت دعوة الأمير في اجتماعٍ خاص عقده في قاعة المؤتمرات بوزارة الخارجية البريطانية في «ويلتون بارك» وسط حشدٍ من الأكاديميين، والزعماء الدينيين، ورجال الأعمال، والعاملين في المؤسسات البريطانية، وأحب أن أورد هنا بعض الفكر الرئيسة التي جاءت في محاضرة الأمير داعية إلى التقارب مع المسلمين، والإقبال على مبادىء الإسلام وقيمه السامية، وإلى بناء صرح التفاهم والتقدير المتبادل بين الإسلام والغرب، ومما جاء فيها:

*** اختلال التوازن في الحضارة الغربية، وضرورة الاستفادة من التراث الإسلامي لتصحيح النظرة الكلية للكون والإنسان:**

إن المادية المعاصرة أحدثت خللاً مروعًا في حياة الفرد والمجتمع؛ لأنها مادية فقدت عنصر التوازن الضروري لحياةٍ سوية متناسقة متكاملة، ولقد بدأنا نحن أبناء العالم الغربي نشعر بأننا قد فقدنا الإحساس الكلي بالكون والبيئة، وبمسؤوليتنا الشاملة إزاء الخلق. ويمكن لنا نحن أبناء الغرب، من أجل إعادة اكتشاف الفهم الأصيل لوجودنا ومهمتنا، أن نلتمس العون على ذلك من التراث الإسلامي المشبع بالنظرة الكلية الأصيلة إلى الكون والإنسان، كما يمكن لنا الاستفادة من هذا التراث في تحسين نظرتنا نحو الأفضل في الخلافة العلمية للإنسان.

*** انفصال العلم عن الدين وأثره في الحياة الغربية:**

لقد شهدت القرون الثلاثة الأخيرة – في الغرب – انقسامًا خطيرًا في طريقة رؤيتنا للعالم المحيط بنا؛ فقد حاول العلم بسط احتكاره وسطوته المستبدة على طريقة تفكيرنا وفهمنا للعالم، وانفصل العلم عن الدين. إن العلم أدى خدمةً جليلة بتبيانه لنا أن العالم أكثر تعقيدًا مما نظن. بيد أن العالم في شكله المادي الأحادي الحديث قد عجز عن تفسير كل شيء، ولا شكّ أن انفصال العلم والتكنولوجيا عن القيم والموازين الأخلاقية قد بلغ حدًّا مروعًا مفزعًا.

*** الحضارة الغربية بحاجة إلى أن تتعلم من الإسلام:**

إن الثقافة الإسلامية جاهدت للحفاظ على الرؤية

الصحيحة المتكاملة للعالم على نحو افتقدناه نحن خلال الأجيال السابقة في الغرب، وهناك الكثير مما يمكن لنا أن نتعلمه من رؤية العالم الإسلامي في هذا المضمار، وهناك طرقٌ شتّى لبناء صرح الفهم والتقدير المتبادل، ولعلنا نستطيع على سبيل المثال أن نبدأ بزيادة عدد المعلمين المسلمين في المدارس البريطانية. إننا نحتاج إلى أن يعلمنا معلمون مسلمون: كيف نتعلم بقلوبنا كما نتعلم بعقولنا. وإن اقتراب بداية الألفية الثالثة قد يكون الحافز المثالي الذي يحفزنا إلى استكشاف هذه الصلات وتنشيطها. وآمل ألا تفوت الفرصة السانحة التي تتيح لنا اكتشاف الجانب الروحي في رؤيتنا لوجودنا كله.

إن رسالة الإسلام مهمة للغرب؛ فهي أكثر تكاملاً وتوحيدًا للعالم(١٩).

٢ - شهادة المستشرقة الألمانية آن ماري شيميل

لعل من أبرز المستشرقين المعاصرين الذين عناهم البحث الجاد، ومحاولة الوصول إلى حقيقة الإسلام، ودراسة حضارته وعلومه، الألمانية آن ماري شيميل، التي تشغل كرسي الأستاذية في العلوم العربية الإسلامية بجامعة بون، والتي تعرضت لهجومٍ عنيف، شنته عليها الأوساط الثقافية الألمانية بسبب موقفها المؤيد للإسلام، وقولها كلمة الحق فيه، وتصديها للرد على ما أثاره سلمان رشدي من تحاملٍ وافتراء على الإسلام ونبيه الكريم، وهذه بعض آرائها عن الإسلام، ومبادئه، ورسوله، ونظامه:

* تقول عن الإسلام ورسوله الكريم:

الإسلام دينٌ ودولة، وهذا يعني أن الدين والدولة وجهان لعملةٍ واحدة، وإذا تخلى الدين عن دوره في توجيه الدولة وإرشادها فإننا سنحصل بذلك على حضارةٍ منهارة روحيًّا وأخلاقيًّا، وهذا هو النموذج السائد في الغرب.

والنبي محمد ﷺ كان سياسيًّا ورجل دولة من الطراز الأول؛ إذ لم يكن للعرب شأنٌ يذكر قبل الإسلام، وإنما كانوا مجموعةً من البدو يعيشون في الصحراء المترامية الأطراف، فإذا به يوحد قوتهم، ويجمع شتاتهم في أعوامٍ قلائل؛ ليكونوا بعد ذلك امبراطورية عرفها العالم، ولا بدّ من الاعتراف بأن الإسلام ينتشر الآن في العالم بصورةٍ كبيرة، ولا سبيل لوقف ذلك أو منعه مهما حاول الغربيون(٢٠).

* وتقول عن دور المرأة ومكانتها في الإسلام:

أما الادعاء بأن الإسلام ظلم المرأة فأمر لا يمكن أن يصدر عن إنسانٍ عاقل، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي منح المرأة حقوقها كاملة، وأكرم منزلتها، وقد رأينا المرأة المسلمة تشارك في الجهاد، وتخوض المعارك، وتضمد الجرحى، وتمارس الأعمال الحياتية كلها، في حرية لا تتنافى مع الحفاظ على كرامتها وطاقتها كأنثى، وذلك قبل أن تعرف المرأة الغربية حقوقها، وتخرج لممارسة العمل بزمنٍ طويلٍ جدًّا.

* وتقول عن موقف المستشرقين المتعصبين العدائي من الإسلام وأثرهم في تشويه صورته:

إن الخطر الإسلامي الذي يتناقله الغرب كمسلماتٍ يقينية غير قابلة للمناقشة بناءٌ عدائيٌّ ضد الإسلام، ترسّب في النفوس بفعل وسائل الإعلام، وكتابات بعض المستشرقين المتعصبين.

ومنذ قرنٍ ونصف والأدب الألماني مستمرٌّ في ترجمة أعدادٍ ضخمة لا حصر لها من الأغاني التركية والعربية، وعادات المسلمين هناك، متخذًا من عمله هذا وسيلةً لتشويه الإسلام، إلى درجة أنها استقرت

في الوعي الأوربي الذي ما زال يتشدق ويتشبث بها حتى الآن.

٣ - شهادة الديبلوماسي الألماني المسلم مراد هوفمان:

اخترت هذه الشهادة بالذات لهذا الرجل المسلم؛ لأن صداقة حميمة تربطني به، ومعرفتي له لمدةٍ طويلة، عندما كان سفيرًا لبلاده بالمغرب، ولنشاطه الإسلامي المتميّز الذي قام به في تلك الفترة، ولعطائه الكبير الذي قدمه لصالح الإسلام والمسلمين.

* وأنقل هنا رأيه عن المستشرقين، وعن الإسلام في الغرب اليوم، ومستقبل الدعوة الإسلامية، يقول:

منذ الثلاثينات وضعت حركات إحياء الإسلام – من القاعدة – في معظم البلاد الإسلامية الإسلامَ في الأجندة السياسية للبلد، حتى أصبح الإسلام يحتل الآن القمة فيما يشغل الإعلام العالمي منذ ربع قرنٍ مضى، ولا يتوقع اليوم أحد أن يختفي الإسلام كما كان ذلك متوقعًا في القرن الماضي، ولكن أن يمتد، بل ينتشر، وتلوح لأول مرة منذ ١٤٠٠ سنة فرصة حقيقية لأن تتطابق التعاليم المسيحية مع اليهود والصورة القرآنية للمسيح... فإذا تحقق هذا يكون الإسلام أكمل مهمته في هذا الميدان، ويبزغ في حوارٍ مسيحيّ يهودي إسلامي، ولأول مرة في مجال العقيدة بعد أن كان محصورًا في الأعمال الاجتماعية.

* ويؤكد مستقبل الدعوة الإسلامية بقوله:

وإذا لم يرد العالم الإسلامي أن يعيش في مثل تلك الثقافة الواحدة التي يسعى الغرب إلى فرضها على العالم، وجب عليه أن يبذل جهدًا هائلاً ليحقق دار إسلام القرن الـ ٢١، حيث تصبح كلمة الله قانونًا، وتزدهر الحضارة الإسلامية ثانيًا، عالم لا يستبد فيه الاقتصاد، وكفاءة التشغيل، والإنتاج، والتكنولوجيا العالية، ومعدل التنمية، والحصول على أقصى ربح، وإنما تتحكم فيه متطلبات البشرية المادية والعاطفية والروحية، فإذا أردنا نحن المسلمين أن نُترك وشأننا فعلينا أن نجاهد جهادًا جبارًا، لنحمي حقنا في الاختلاف الثقافي، في عالمٍ يسعى لفرض الأنموذج الغربي عالميًّا. ويتطلب ذلك أن يعود المسلمون بالميلاد إلى مسلمين بالإيمان والفعل، وليس هناك بديلٌ عن ذلك(٢١).

الخطاب الإسلامي الواجب اليوم

كما رأينا ينبغي التعامل مع الغرب من منظورٍ شامل، لا يقتصر على الموجود خارج الدائرة الإسلامية، بل بالدخول إلى مدارات الحوار الحضاري، الذي يقوم على النقد البنّاء من أجل الوصول إلى الغاية المتوخاة، وبذلك يتعدى الخطاب الإسلامي اليوم من تصحيح الصورة إلى نشر الفكر الإسلامي والدعوة الإسلامية على المستوى العالمي بتقديم الإسلام كما هو، وكما نزل، وكما ينبغي أن يمارس، ويجسد على أرض الواقع، لا كما يُمارس في كثيرٍ من المجتمعات والدول، وهو ما يمكننا من محو الصورة المشوّهة التي رسمها العلمانيون والحاقدون، سواء في الغرب أو بين أبناء أمتنا أنفسهم. إن ذلك سيساهم لا محالةَ في تقليص درجات الالتباس المتراكمة في علاقات الإسلام بالغرب، وذلك عن طريق فحص الأحكام السائدة بين الثقافتين ومراجعتها ونقدها، كما يروم هذا الخطاب الصريح تفكيك إرث التجافي المشترك، الذي بلورته ظروفٌ تاريخية ينبغي تجاوزها والتغلب على مخلفاتها، خدمةً لطموح الإنسانية في التعاون المشترك المطلوب، القائم على احترام التنوع والاختلاف بين الحضارات في هذا الوقت خاصةً، الذي أصبح العالم فيه في حاجةٍ ماسّة إلى بديلٍ

يحقق له الطمأنينة والاستقرار. يؤكد ذلك ظاهرة انتشار الإسلام في الغرب، وازدياد الإقبال عليه بشكلٍ ملحوظ، مما ساعد على بداية تفهم روح الإسلام، وتعرّف سمو مقاصده وأهدافه، كما ظهر على ألسنة كثيرٍ من الزعماء والسياسيين والمفكرين وفي مقدمتهم الأمير تشارلز ولي عهد المملكة المتحدة، و«جراهام فوللر» المسؤول السابق بوكالة المخابرات الأمريكية في كتابه (الشعور بالحصار) حيث يقول:

«إننا لا نؤمن بأن العلاقات بين الإسلام والغرب بصفةٍ عامة ستكون مسرحًا للصراع الأيديولوجي القادم في العالم، على الرغم من التنافس التاريخي بينهما بوصفهما عقيدتين في العالم، فالإسلام كدين اليوم ليس في وضعٍ تصادمي مع المسيحية أو مع الغرب بأي شكلٍ من الأشكال»(٢٢).

اقتراحات

تصحيحًا لمسيرة الصحوة الإسلامية وتدعيمًا لها، وتحقيقًا للمقصد الأسمى من تصحيح صورة الإسلام في الغرب، نقترح ما يلي:

* دعم وسائل الإعلام وأدواته في البلاد الإسلامية ببرامج ثقافية منهجية عن الإسلام وقيمه العليا، ومبادئه السامية، وإظهار مكارمه ومزاياه وسماحته.

* إقامة وحداتٍ فكرية علمية، لرصد ما يبث عن الإسلام، والتصدي لحملات التشكيك، وتفنيد الأباطيل، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، ومتابعة التحركات العالمية، وتقديم وجهة النظر الإسلامية حولها.

* دعم المراكز الإسلامية وتعميمها في الخارج ببرامج مدروسة تعرف بالإسلام وحضارته، وعقائده الثابتة، ومبادئه السمحة، في رعاية حقوق الإنسان، المرتكزة على التوسط، والاعتدال، وحسن التفاهم والحوار، والابتعاد عن كل غلوٍّ وتطرف.

* تدعيم جهاز الدعوة الإسلامية بالمال والرجال الأكفاء، لتبليغ كلمة الله، وتبديد الحجب والضلالات التي أخفت عن الغرب حقيقة الإسلام وسماحته، ودعوته إلى التكافل والتعاون بين بني البشر جميعًا.

* العمل على إنشاء قناةٍ فضائية إسلامية، تبث برامجها بانتظامٍ واستمرار طوال اليوم باللغات العالمية المعتمدة لدى الأمم المتحدة.

* إصدار مجلةٍ شهرية باللغات العالمية، تقدم لأبناء الغرب حقائق الإسلام، وتعرّف بدوله وحضارته.

* مضاعفة الاهتمام والعناية بالجاليات الإسلامية في الغرب؛ ليرتفع مستواها الثقافي والإسلامي، ولتكون نماذج تُحتذى، كما كان أجدادنا خيرُ رسلٍ ودعاةٍ للإسلام لالتزامهم به.

* مضاعفة تنظيم الندوات، والمحاضرات، واللقاءات بين المفكرين المسلمين وبين رجال الثقافة والعلم والفكر في الغرب؛ لزيادة التقارب والتفاهم، وتبليغ الدعوة الإسلامية، والتعريف بالإسلام، وإطلاعهم على منهجية هذا الدين وعظمته، وأنه دين وحدةٍ يدعو إلى تلاحم المجتمعات البشرية وتعاونها، من أجل دفع مسيرة التقدم إلى الأمام.●

الحواشي

١ – سورة البقرة: ١٢٠.

٢ – ١٩٩٤. – ٨– ٢١ Heritage Founda

٣ – ١٩٩٥. – ٢٧ The scots Man 1995. / FEO

٤ – انظر عدد "نيويورك تايمز" الصادر بتاريخ ٢٢/ ١٩٩٢.

٥ – للتوسع في الموضوع انظر كتاب «الإسلام بين الشرق والغرب» للرئيس علي عزت بيجوفيتش، مؤسسة بافريا، يناير ١٩٩٤.

٦ – آل عمران: ٦٤.

٧ – النحل: ١٢٥.

٨ – البقرة: ١١١.

٩ – البقرة: ١٤٣.

١٠ – فصلت: ٣٤.

١١ – انظر جريدة الشرق الأوسط، العدد ٥٩٦٣، ص ١٧ بتاريخ ١٧/ ٣/ ١٩٩٥.

١٢ – انظر مجلة الرائد «ألمانيا»، العدد ١٣٢، ص ٣٦، يناير، ١٩٩١.

١٣ – قام صموئيل هنتينغتون بنشر مقاله الشهير (صراع الحضارات) في صيف عام ١٩٩٣ بمجلة شؤون خارجية، والحديث عن التهديد الإسلامي للغرب، ثم عاد وصحّح نظريته في بداية سنة ١٩٩٨.

١٤ – حديثٌ شريف رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٦/٦، والترمذي وأبو داود في سننيهما عن عائشة رضي الله عنها، ومختصر شرح الجامع الصغير للمناوي: ١٧٦/١.

١٥ – مجلة العالم، لندن، العدد ٣٠٩، ص ٢٨، يناير ١٩٩٦.

١٦ – «تغطية الإسلام»: ١٠.

١٧ – انظر مجلة الرائد (ألمانيا) العدد ١٣٢، يناير ١٩٩١، ص٣٦.

١٨ – جريدة عكاظ السعودية، العدد ١١٢١٦، السنة ٣٩، ٢/ ٥/ ١٩٩٧، ص٨٠.

١٩ – انظر نص المحاضرة في جريدة «الشرق الأوسط» العدد ٦٥٩٨، ص٥ بتاريخ ٢١/ ١٢/ ١٩٩٦.

٢٠ – راجع الحوار الممتاز الذي أجرته معها جريدة «العالم الإسلامي» الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي ص٥ بتاريخ ١٨ – ٢٤ نوفمبر ١٩٩٦.

٢١ – راجع تفصيل ذلك في كتاب الدكتور مراد هوفمان «الإسلام عام ٢٠٠٠».

٢٢ – جريدة الراية، عدد ٢٣٩، ١٣ مارس ١٩٩٧، ص١٠ نقلاً عن كتاب «الشعور بالحصار» لچراهام فوللر.